وصفًا لهم بأنهم زاهر، وهذه الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم وشارتهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب ﴿لنفتنهم﴾ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه[1] ﴿ورزق ربك﴾ هو ما أدخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم، أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوّة، أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال ﴿خير وأبقى﴾ لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث. والحرام لا يسمى رزقًا أصلاً، وعن عبد الله بن قسيط، عن رافع قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى يهوديّ وقال: «قل له يقول لك رسول الله أقرضني إلى رجب». فقال: وا الله لا أقرضته إلا برهن، فقال رسول الله: «إني لأمين في السماء وإني لأمين في الأرض أحمل إليه درعي الحديد»[2] فنزلت ﴿ولا تمدّن عينيك﴾.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾.

﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أي: وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم، ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة فإنّ رزقك مكفيّ من عندنا ونحن نرزقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ففرّغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من دان في عمل الله كان الله في عمله، وعن عروة بن الزبير: أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين. قرأ: ﴿ولا تمدّن عينيك﴾ الآية، ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله، وعن بكر بن عبد الله المزني: كان إذا أصابت أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية.

وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾.

اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوّة فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني: القرآن. من قبل أنّ القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. وقرئ: الصحف بالتخفيف. ذكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى: البرهان والدليل.

وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾.

قرئ: ﴿نزلّ ونخزى﴾ على لفظ ما لم يسم فاعله ﴿كل﴾ أي: كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ للعاقبة ولما يؤوّل إليه أمرنا وأمركم. وقرئ: السواء بمعنى: الوسط والجيد، أو المستوي، والسوى والسوأى والسوء تصغير السوء، وقرئ: فتمتعوا فسوف تعلمون. قال أبو رافع: حفظته من رسول الله ﷺ: «عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار،[3] وقال: لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا طه، ويس»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنبياء مكيّة

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾.

هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلةً «لاقترب» أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم كقولك: أزفّ للحيّ رحيلهم، الأصل أزفّ رحيل الحي، ثم أزفّ للحي الرحيل، ثم أزفّ للحي رحيلهم ونحوه ما أورده سيبويه في باب ما يثنى فيه المستقرّ، توكيدًا عليك زيد حريص عليك وفيك زيد راغب فيك. ومنه قولهم: لا أبًا لك، لأنّ اللام مؤكدة لمعنى الإضافة وهذا الوجه أغرب من الأوّل، والمراد: اقتراب الساعة وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب، وغير ذلك ونحوه واقترب الوعد الحق.

فإن قُلْتَ: كيف وصف بالاقتراب وقد عدّت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام؟ **قُلْتُ:** هو مقترب عند الله والدليل عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾[5] ﴿وإنّ يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدّون﴾[6] ولأنّ كلّ آت وإن طالت أوقات استقباله وترقبه قريب، إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض ولأنّ ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها، بدليل انبعاث خاتم النبيين

= ما أباح له تناوله وما لا، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، والله الموفق للصواب.

(1) سورة القصص، الآية: 80.

(2) كشف الأستار كتاب، البيوع، باب: القرض والبيع إلى أجل (الحديث رقم: 1304).

(3) ذكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي (2/356).

(4) ذكره الثعلبي في تفسيره الزيلعي (2/356).

(5) سورة الحج، الآية: 47.

(6) سورة الحج، الآية: 47.

الموعود مبعثه في آخر الزمان. وقال عليه السلام: «بعثت في نسم الساعة»[1]. وفي خطبة بعض المتقدّمين: ولت الدنيا حذاء ولم تبق إلا صبابة كصبابة الإناء، وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت في نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ المراد بالناس: المشركون، وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه؛ للدليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين.

وصفهم بالغفلة مع الإعراض على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بدّ من جزاء للمحسن والمسيء، وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا، وسدّوا أسماعهم ونفروا.

وقرّر إعراضهم عن تنبيه المنبه، وإيقاظ الموقظ بأنّ الله يجدّد لهم الذكر وقتًا فوقتًا، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرّر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلّهم يتّعظون، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر التي هي أحق الحق وأجدّ الجد إلا لعبًا وتلهيًا واستسخاراً. والذكر: هو الطائفة النازلة من القرآن. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿محدث﴾ بالرفع صفة على المحل.

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾.

قوله: ﴿وهم يلعبون﴾ ﴿لاهية قلوبهم﴾ حالان مترادفتان أو متداخلتان، ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة؛ لأنّ لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله وهم، واللاهية من لها عنه إذا ذهل وغفل، يعني: أنهم وإن فطنوا، فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا أصلاً، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمّل والتبصّر بقلوبهم.

فإن قُلْتَ: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية، فما معنى قوله: وأسرّوا؟ **قُلْتُ:** معناه وبالغوا في إخفائها، أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون. أبدل ﴿الذين ظلموا﴾ من واو ﴿وأسرّوا﴾ إشعارًا بأنّهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسرّوا به، أو جاء على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أو هو منصوب المحل على الذمّ، أو هو مبتدأ خبره ﴿وأسرّوا النجوى﴾ قدّم عليه، والمعنى: وهؤلاء أسرّوا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم أفتاتون السحر وأنتم تبصرون﴾ هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى. أي: وأسرُّوا هذا الحديث ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمرًا. اعتقدوا أنّ رسول الله ﷺ لا يكون إلا ملكًا وأن كل من ادّعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر، ومعجزته سحر فلذلك قالوا: على سبيل الإنكار أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر.

فإن قُلْتَ: لِمَ أسرُّوا هذا الحديث وبالغوا في إخفائه؟ **قُلْتُ:** كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم، والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره وعمل المنصوبة في التثبيط عنه، وعادة المتشاورين في خطب أن لا يشركوا أعداءهم في شوراهم ويتجاهدوا في طيّ سرّهم عنهم ما أمكن واستطيع، ومنه قول الناس: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان»[2]، ويرفع إلى رسول الله ﷺ. يجوز أن يسرّوا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله ﷺ والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقًا فأخبرونا بما أسررنا؟

فإن قُلْتَ: هلا قيل: يعلم السر لقوله: ﴿وأسرّوا النجوى﴾! **قُلْتُ:** القول عام يشمل السرّ والجهر فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادة، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السرّ كما أنّ قوله يعلم السرّ آكد من أن يقول يعلم سرهم. ثم بيّن ذلك بأنه السميع العليم لذاته، فكيف تخفى عليه خافية[3].

فإن قُلْتَ: فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله: ﴿قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض﴾[4]؟ **قُلْتُ:** ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كل موضع، ولكن يجيء

---

(1) كشف الأستار كتاب: المواعظ، باب: اقتراب الساعة (حديث رقم 3215)، ورواه أبو نُعيم في الحلية 4/161، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ: بعثت أنا والساعة (حديث رقم 2213)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (حديث رقم 14، 2967).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الحث على ترك الغل والحسد (حديث رقم 6655).

(3) قال أحمد: وهذا من اتباع القرآن للرأي نعوذ بالله من ذلك، لا سيما رأي ينفي صفات الكمال عن الله تعالى، وما الذي دل عليه السميع العليم من نفي صفتي السمع والعلم في تفسيرهما بذلك، مع أنه لا يفهم في اللغة سميع إلا بسمع، ولا عليم إلا بعلم، فإنها صفات مشتقات من مصادر لا بدّ من فهمها وثبوتها أوّلاً، ثم ثبوت ما اشتقت منه. ومن أنكر السمع والعلم، فقد سارع إلى إنكار السميع = العليم وهو لا يشعر، وليس غرضنا في هذا المصنف سوى الإيقاظ لما انطوى عليه الكشاف من غوائل البدع ليتجنبها الناظر، وأمّا الأدلة الكلامية فمن فنها تتلقى، وحاله فيما يورده من أمثال هذه النزعات مختلف، فمرّة يوردها عند كلام يتخيل في ظاهره إشعاراً بغرضه، فوظيفتنا معه حينئذ أن ننازع في الظهور، ثم قد نترقى إلى بيان ظهوره في عكس مراده أو نصوصيته، حتى لا يحتمل ما يدّعيه بوجه ما، وقد يلجئنا الإنصاف إلى تسليم الظهور له، فننكر وجه التأويل الذي يرشد إليه دليل العقل، ومرّة يورد نبذاً من هذا الرأي عند كلام لا يحتمله ولا يشعر به بوجه، وغرضه التعسف حتى لا يخلى شيئاً من كلامه من تعصب وإصرار على باطل، فتنبه على ذلك أيضاً، وما نكره عند هذه الآية من قبيل ما يدل النص على عكس مراده فيه وقد أوضحناه.

(4) سورة الفرقان، الآية: 6.

بالوكيد تارة وبالأكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره، ليفتنّ الكلام افتنانًا وتجمع الغاية وما دونها على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم هنا أنهم أسرّوا النجوى، فكأنه أراد أن يقول: إنّ ربي يعلم ما أسرُّوه، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة، وثم قصد وصف ذاته، بأنّ إنزاله الذي يعلم السرّ في السمٰوات والأرض فهو كقوله: ﴿علام الغيوب﴾[1] ﴿عالم الغيب﴾[2] ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرّة﴾[3]. وقرئ: ﴿قال ربي﴾ حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم: «اضربوا» عن قولهم: هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد، ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد، وأن قولهم الثاني أفسد من الأول والثالث أفسد من الثاني وكذلك الرابع من الثالث.

بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾.

صحة التشبيه في قوله: ﴿كما أرسل الأوّلون﴾ من حيث أنّه في معنى كما أتى الأوّلون بالآيات لأنّ إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات، ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول: أرسل محمد ﷺ وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة؟

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾.

﴿أفهم يؤمنون﴾ فيه أنهم أعني من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات، وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا فأهلكهم الله، فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾.

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر، وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرًا، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا، وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون المشركين في معاداة رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا﴾[4] فلا يكاذبونهم فيما هم فيه ردء لرسول الله ﷺ.

وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾.

﴿لا يأكلون الطعام﴾ صفة لجسدًا، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوي جسد غير طاعمين، ووحّد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال: ذوي ضرب من الأجساد، وهذا ردّ لقولهم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام؟

فإن قُلْتَ: نعم قد ردّ إنكارهم أن يكون الرسول بشراً يأكل ويشرب بما نكرت فماذا ردّ من قولهم بقوله: ﴿وما كانوا خالدين﴾؟ **قُلْتُ:** يحتمل أن يقولوا: إنّه بشر مثلنا يعيش كما نعيش ويموت كما نموت، أو يقولوا: هلا كان ملكًا لا يطعم ويخلد، إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون أو مسمين حياتهم المتطاولة وبقاءهم الممتد خلوداً.

ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾.

﴿صدقناهم الوعد﴾ مثل: واختار موسى قومه، والأصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال، وصدقني سن بكره ﴿ومن نشاء﴾ هم المؤمنون ومن في بقائه مصلحة.

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾.

﴿ذكركم﴾ شرفكم وصيتكم كما قال: وإنه لذكر لك ولقومك، أو موعظتكم أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء، أو حسن الذكر كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة والسخاء، وما أشبه ذلك.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾.

﴿وكم قصمنا من قرية﴾ واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم؛ لأنّ القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم، وأراد بالقرية أهلها ولذلك وصفها بالظلم، وقال: ﴿قومًا آخرين﴾ لأن المعنى: أهلكنا قومًا وأنشأنا قومًا آخرين. وعن ابن عباس أنها: «حضور». وهي «سحول» قريتان باليمن تنسب إليهما الثياب، وفي الحديث: «كفن رسول الله ﷺ في ثوبين سحوليين»[5]. وروي: حضوريين. بعث الله إليهم نبيًا فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر، كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم، وروي: أنهم لما أخذتهم السيوف ونادى منادٍ من السماء: يا لثارات الأنبياء. ندموا واعترفوا بالخطأ ولذلك حين لم ينفعهم الندم؛ وظاهر الآية على الكثرة. ولعل ابن عباس ذكر «حضور» بأنها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية.

فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾.

فلما علموا شدّة عذابنا وبطشتنا علم حسّ ومشاهدة، لم

---

(1) سورة التوبة، الآية: 78.
(2) سورة الرعد، الآية: 9.
(3) سورة سبأ، الآية: 3.
(4) سورة آل عمران، الآية: 186.
(5) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الثياب البيض للكفن (حديث رقم 1264) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: في كفن الميت (حديث رقم 456 ـ 941).

يشكوا فيها ركضوا من ديارهم.

والركض: ضرب الدابة بالرجل، ومنه قوله تعالى: ﴿اركض برجلك﴾[1] فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب؛ ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم.

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾.

فقيل لهم: ﴿لا تركضوا﴾ والقول محذوف.

فإن قُلْتَ: من القائل؟ **قُلْتُ:** يحتمل أن يكون بعض الملائكة، أو من ثم من المؤمنين، أو يجعلوا خلفاء بأن يقال لهم ذلك، وإن لم يقل أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم، أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم ﴿وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾ من العيش الرافه، والحال الناعمة والإتراف إبطار النعمة، وهي الترفه ﴿لعلكم تسئلون﴾ تهكم بهم وتوبيخ أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدًا عما جرى عليكم. ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم، وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره، وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم: بم تأمرون وبماذا ترسمون؟ وكيف نأتي ونذر كعادة المنعمين المخدمين؟ أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ويستضيئون بآرائكم، ويسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحائب اكفكم، ويمترون أخلاف معروفكم وأياديكم، إما لأنهم كانوا اسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس، وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم وتوبيخاً إلى توبيخ.

فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى يا ويلنا لأنها دعوى كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى ﴿دعواهم﴾، والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[2].

فإن قُلْتَ: لم سميت دعوى؟ **قُلْتُ:** لأن المولول كأنه يدعو الويل فيقول: تعالى يا ويل فهذا وقتك، وتلك مرفوع أو منصوب اسمًا أو خبرًا وكذلك دعواهم. الحصيد: الزرع المحصود أي: جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم واصطلامهم كما تقول: جعلناهم رمادًا أي: مثل الرماد والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان بعده كانا خبرين له، فلما دخل عليها جعل نصبها جميعاً على المفعولية.

فإن قُلْتَ: كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل؟ **قُلْتُ:** حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد، لأنّ معنى قولك: جعلته حلوًا حامضًا جعلته جامعًا للطعمين، وكذلك معنى: ذلك جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾.

أي: وما سوينا هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب، كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب؛ وإنما سويناها للفوائد الدينية، والحكم الربّانية لتكون مطارح افتكار، واعتبار، واستدلال، ونظر لعبادنا مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعدّ، والمرافق التي لا تحصى.

لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾.

ثم بيّن أنّ السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي، هو أن الحكمة صارفة عنه، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلاً لأني على كل شيء قدير. وقوله: ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ كقوله: ﴿رزقًا من لدنا﴾ أي: من جهة قدرتنا، وقيل: اللهو: الولد بلغة اليمن، وقيل: المرأة، وقيل: من لدنا أي: من الملائكة لا من الإنس، ردًّا لولادة المسيح وعزير.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾.

﴿بل﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته، كأنه قال[3]: سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب، بل من عادتنا

---

(1) سورة صَ، الآية: 42.

(2) سورة يونس، الآية: 10.

(3) قال أحمد: وله تحت قوله: واستغنائنا عن القبيح دفين من البدعة والضلالة، ولكنه من الكنوز التي يحمى عليها في نار جهنم، وذلك أنّ القدرية يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح، وفعل ما يتوهمونه حسناً بعقولهم، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك، فلا يستغني الحكيم على زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح، فإنّ الحكمة تقتضي الاستغناء عنه، فإلى ذلك يلوح الزمخشري وما هي إلا نزغة سبق إليها ضلال الفلاسفة. ومن ثم يقولون: ليس في الإمكان أكمل من هذا العالم؛ لأنه لو كان في القدرة أكمل منه وأحسن، ثم لم يخلقه الله تعالى لكان بخلاً ينافي الجود، أو عجزاً ينافي القدرة حتى اتبعهم في = ذلك من لا نسميه من أهل الملة عفا الله عنه إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو، فالحق أنّ الله تعالى مستغن عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها، مصلحة كانت أو مفسدة، وأن له أن لا يخلق ما يتوهمه القدرية حسناً، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحاً، وأنّ كل موجود من فاعل وفعل على الإطلاق فبقدرته وجد، فليس في الوجود إلا الله وصفاته وأفعاله، وهو مستغن عن العالم بأسره وحسنه وقبحه، فلو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل منكم، لم يزد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم على أفجر قلب رجل منكم، لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً. اللهم ألهمنا الحق واستعملنا به.

وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق[1]، واستعارة لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه؛ فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه. ثم قال: ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته، وقرئ: فيدمغه بالنصب وهو في ضعف قوله:

ساترك منزلي لبني تميم والحق بالحجاز فاستريحا

وقرئ: فيدمغه.

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾.

﴿ومن عنده﴾ هم الملائكة والمراد أنهم مكرمون منزلون لكرامتهم عليه منزلة المقرّبين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه.

فإن قُلْتَ[2]: الاستحسار مبالغة في الحسور، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور! **قُلْتُ**: في الاستحسار بيان أنّ ما هم فيه يوجب غاية الحسور، وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون.

يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾.

أي: تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ، أو شغل آخر.

أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾.

هذه ﴿أم﴾ المنقطعة الكائنة بمعنى: بل، والهمزة قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، والمنكر هو اتخاذهم ﴿آلهة من الأرض هم ينشرون﴾ الموتى، ولعمري أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات.

فإن قُلْتَ: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى[3]؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عزّ وجلّ بأنه خالق السمٰوات والأرض، ولئن سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ ليقولنّ: الله. وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى منكرين البعث. ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر، كإثباني القديم فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً! **قُلْتُ**: الأمر كما ذكرت ولكنهم بادّعائهم لها الإلٰهية يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار لأنّه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشار من جملة المقدورات، وفيه باب من التهكم بهم، والتوبيخ، والتجهيل، وإشعار بأنّ ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده، لأنّ الإلٰهية لما صحت صحّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة، ونحو قوله: ﴿من الأرض﴾ قولك: فلان من مكة أو من المدينة، تريد مكي أو مدني، ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض، لأنّ الآلهة على ضربين: أرضية وسماوية، ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله ﷺ: «أين ربك؟» فأشارت إلى السماء فقال: «إنها مؤمنة»[4] لأنه فهم منها أنّ مرادها نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام، لا إثبات السماء مكانًا لله عزّ وجلّ، ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض؛ لأنها إمّا أن تنحت من بعض الحجارة، أو تعمل من بعض جواهر الأرض.

فإن قُلْتَ: لا بدّ من نكتة في قوله[5]: ﴿هم﴾! **قُلْتُ**: النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية، كأنه قيل: أم اتخذوا آلهة لا يقدر

---

(1) قال أحمد: وفي مثل هذا التنبيه من حسناته، ولولا أنّ السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوت ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وبمثله أجيب عن قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ فانظره قوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾.

(3) قال أحمد: فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها، وهو أبلغ في الإنكار، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة (حديث رقم 33 ـ 537)، ورواه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: في الرقبة المؤمنة (حديث رقم 3282).

(5) قال أحمد: وفيه هذه النكتة نظر؛ لأنّ آلات الحصر مفقودة، وليس ذلك من قبيل صديقي زيد، فإنّ المبتدأ في الآية أخصّ شيء؛ لأنه ضمير، وأيضاً فلا ينبني على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم، وتخصيص الإنشار بهم، ونفيه عن الله تعالى إذ هذا لا يناسب السياق، فإنه قال عقبها: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ ومعناه: لو كان فيهما إله غير الله شريكاً لله لفسدتا، وكان مقتضى ما قال الزمخشري أن يقال: لو لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدتا، وأمّا المتلوّ على خلاف ذلك فلا وجه لما قال الزمخشري. وعندي: أنه يحتمل والله أعلم أن تكون فائدة قوله: هم الإيذان = بأنهم لم يدّعوا لها الإنشار، وأنّ قوله: هم ينشرون استئناف إلزام لهم، وكأنه قال اتخذوا آلهة مع الله عز وجل فهم إذن يحيون الموتى ضرورة كونهم آلهة، ثم لما انتظم من دعواهم الألوهية للأصنام وإلزامهم على ذلك أن يصفوهم بالقدرة الكاملة على إحياء الموتى نظم في إبطال هذه الدعوى، وما ألزمهم عليها دليل قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾. وأزيد هذا التقرير وضوحاً، فأقول: إنّ دليل التمانع المغترف من بحر هذه الآية المقتبس من نورها يورده المتكلمون على صورة التقسيم، فيقولون: لو وجد مع الله إله آخر، وربما قالوا: لو فرضنا وجود إلهين، فإمّا أن يكونا جميعاً موصوفين بصفات الكمال اللاتي يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشارهم وغير ذلك من الممكنات، أو لا يتصف بها واحد منهما أو أحدهما دون الآخر، ثم يحيلون جميع الأقسام وهو المسمى برهان الخلف، وأدقّ الأقسام إبطالاً قسم اتصافهما جميعاً بصفات الكمال، وما عداه فمبادئ الرأي يبطل، فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الخفي البطلان، فأوضح فساده في أخصر أسلوب وأوجزه، وأبلغ بديع الكلام ومعجزه، وإنما ينتظم هذا على أن يكون المقصد من قوله: ﴿هم ينشرون﴾ إلزامهم ادّعاء صفات الألوهية لآلهتهم حتى يتحرّى أنهم اختاروا القسم الذي أبطله الله تعالى، ووكل إبطال ما =

على الإنشار إلا هم وحدهم. وقرأ الحسن: ﴿ينشرون﴾ وهما لغتان؛ أنشر الله الموتى ونشرها.

لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾.

وصفت آلهة بإلا كما توصف بغير لو قيل: آلهة غير الله.

فإن قُلْتَ: ما منعك من الرفع على البدل؟ **قُلْتُ:** لأنّ لو بمنزلة إنّ في أنّ الكلام معه موجب، والبدل لا يسوّغ إلاّ في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿لا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتك﴾[1] وذلك لأنّ أعمّ العامّ يصح نفيه ولا يصح إيجابه، والمعنى: لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا، وفيه دلالة على أمرين: أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً. والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلاّ إياه وحده، لقوله: ﴿إلا الله﴾.

فإن قُلْتَ: لم وجب الأمران؟ **قُلْتُ:** لعلمنا أنّ الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف. وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد: الاشدق كان والله أعزّ عليّ من دم ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شول، وهذا ظاهر وأمّا طريقة التمانع فللمتكلمين فيها تجاول وطراد، ولأنّ هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقرّ.

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾.

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم، وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبًا وإجلالاً، مع جواز الخطإ والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك، وربّ الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله مع ما علم، واستقرّ في العقول من أنّ ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح[2] ﴿وهم يسئلون﴾، أي: هم مملوكون مستعبدون خطاؤن فما أخلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم في كل شيء فعلوه؟.

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾.

كرّر ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ استفظاعًا لشانهم واستعظامًا لكفرهم أي: وصفتم الله تعالى بأنّ له شريكًا فهاتوا برهانكم على ذلك، إمّا من جهة العقل وإمّا من جهة الوحي، فإنكم لا تجدون كتابًا من كتب الأوّلين إلاّ وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه، والإشراك به منهي عنه متوعد عليه. أي: ﴿هذا﴾ الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه، كما ورد عليّ فقد ورد على جميع الأنبياء فهو ذكر أي: عظة للذين معي يعني: أمّته وذكر للذين من قبلي يريد أمم الأنبياء عليهم السلام وقرئ ﴿وذكر من معي وذكر من قبلي﴾ بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله: ﴿وإطعام في يوم ذي مسغبة يتيمًا﴾[3] هو الأصل، والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾[4] وقرئ من معي ومن قبلي على من الإضافية في هذه القراءة وإدخال الجار على مع غريب، والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد وعند وما أشبه ذلك، فدخل عليه من كما يدخل على أخواته وقرئ ذكر معي وذكر قبلي. كأنه قيل: بل عندهم ما هو أصل الشرّ والفساد كله وهو الجهل وفقد العلم وعدم التمييز بين الحق والباطل، فمن ثم جاء هذا الإعراض ومن هناك ورد هذا الإنكار. وقرئ ﴿الحق﴾ بالرفع على توكيد بين السبب والمسبب، والمعنى: أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل، ويجوز أن يكون المنصوب أيضاً على هذا المعنى كما تقول: هذا عبد الله الحق لا الباطل.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾.

﴿يوحى﴾ و﴿نوحي﴾ مشهورتان، وهذه الآية مقرّرة لما سبقها من آي التوحيد.

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾.

نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله. نزّه ذاته عن ذلك ثم أخبر عنهم بأنهم عباد، والعبودية تنافي الولادة إلاّ أنهم ﴿مكرمون﴾ مقرّبون عندي مفضلون على سائر العباد[5] لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم،

= عباده من الأقسام إلى ما ركبه في عباده من العقول، وكل خطب بعد بطلان هذا القسم جلل والله الموفق، فتأمّل هذا الفصل بعين الإنصاف تجده أنفس الأنصاف والله المستعان.

(1) سورة هود، الآية: 81.

(2) قال أحمد: سحقاً لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع الله تعالى أعني قوله: دواعي الحكمة، فإنّ الدواعي والصوارف إنما تستعمل في حق المحدثين، كقولك: هو مما توفر دواعي الناس إليه، أو صوارفهم عنه، وقوله: لا يجوز عليه فعل القبائح، قلت: وهذا من الطراز الأوّل، ولو أنه في الذيل

فقد نسيت وما بالعهد من قدم

وبعدما انقضى دليل التوحيد، وإبطال الشرك من سمعك أيها الزمخشري، وقلمك رطب بتقريره، فلم نكصب وانتكست أتقول: أنّ =

= أحداً شريك الله في ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التي تسميها قبائح، فتنفيها عن قدرة الله تعالى وإرادته، وما الفرق بين من يشرك لله ملكاً من الملائكة، وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول: إنه يفعل ويخلق لنفسه شاء الله أو لم يشأ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والقدرية ارتضوا لأنفسهم شر شرك؛ لأنّ غيرهم أشرك بالملائكة، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجنّ، وجميع الحيوانات. نعوذ بمالك الملك من مسالك الهلك.

(3) سورة البلد، الآية: 14.

(4) سورة الروم، الآيتان: 2 ـ 3.

(5) قال أحمد: وهذا التفسير من جعل القرآن تبعاً للرأي، فإنه لما كان يعتقد تفضيل الملائكة على الرسل نزل الآية على معتقده، وليس غرضنا إلا بيان أنه حمل الآية ما لا تحتمله، وتناول منها ما =

فذلك هو الذي غر منهم من زعم أنهم أولادي تعاليت عن ذلك علوًا كبيرًا، وقرئ: ﴿مكرمون﴾.

لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾.

و﴿لا يسبقونه﴾ بالضم من سابقته، فسبقته أسبقه والمعنى أنهم يتبعون قوله: ﴿ولا يقولون شيئاً حتى يقوله﴾ فلا يسبق قولهم قوله! والمراد بقولهم: فأنيب. اللام مناب الإضافة أي: لا يتقدّمون قوله بقولهم كما تقول: سبقت بفرسي فرسه.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾.

وكما أنّ قولهم تابع لقوله: فعملهم أيضًا كذلك مبني على أمره لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به، وجميع ما يأتون ويذرون مما قدّموا وأخّروا بعين الله، وهو مجازيهم عليه فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراعون أحوالهم ويعمرون أوقاتهم، ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم ثم أنهم مع هذا كله من خشية الله ﴿مشفقون﴾، أي: متوقعون من أمارة ضعيفة كائنون على حذر. ورقبة لا يأمنون مكر الله، وعن رسول الله ﷺ: أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطًا كالحلس من خشية الله[1].

۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾.

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليه وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية، فاجأ بالوعيد الشديد وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾[2] قصد بذلك تفظيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾.

قرئ: ﴿ألم يرَ﴾ بغير واو و﴿رتقًا﴾ بفتح التاء وكلاهما في معنى المفعول كالخلق والنقض أي: كانتا مرتوقتين.

فإن قُلْتَ: الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين؛ لأنه مصدر فما بال الرتق؟ قُلْتُ: هو على تقدير موصوف أي: كانتا شيئاً رتقاً، ومعنى ذلك: أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السمٰوات متلاصقات وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقها الله وفرج بينها. وقيل: ﴿ففتقناهما﴾ بالمطر والنبات بعدما كانت مصمتة وإنما قيل: كانتا دون كن لأنّ المراد جماعة السمٰوات وجماعة الأرض ونحوه. قولهم: لقاحان سوداوان أي: جماعتان فعل في المضمر نحو ما فعل في المظهر.

فإن قُلْتَ: متى رأوهما رتقًا حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قُلْتُ: فيه وجهان. أحدهما: أنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد. والثاني: أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بدّ للتباين دون التلاصق من مخصص، وهو القديم سبحانه ﴿وجعلنا﴾ لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾[3] وكأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾[4] وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى: صيرنا كل شيءٍ حي بسبب من الماء لا بدّ له منه ومن هذا نحو من في قوله عليه السلام «ما أنا من دد ولا الدد مني»[5]، وقرئ: حياً، وهو المفعول الثاني والظرف لغو.

وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾.

أي: كراهة ﴿أن تميد بهم﴾ وتضطرب أو لئلا تميد بهم[6]، فحذف لا واللام وإنما جاز حذف لا لعدم الالتباس،

= لا تعطيه؛ لأنه ادّعى أنهم مكرمون على سائر الخلق لا على بعضهم، فدعواه شاملة ودليله مطلق، والله الموفق.

(1) كشف الأستار كتاب: الإيمان، باب: منه في الإسراء (حديث رقم 58)، ورواه البيهقي في الشعب، باب: في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة (حديث رقم: 155).

(2) سورة الأنعام، الآية: 88.

(3) سورة النور، الآية: 45.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(5) أخرجه في كشف الأستار كتاب: علامات النبوة، باب: عصمته (حديث رقم: 2402)، ورواه البخاري في الأدب المفرد 2/256 باب: الغناء واللهو (حديث رقم 785).

(6) قال أحمد: واولى من هذين الوجهين أن يكون من قولهم أعددت هذه الخشبة أن تميل الحائط فأدعمه. قال سيبويه: ومعناه أن ادعه الحائط إذا مال، وإنما قدم ذكر الميل اهتماماً بشأنه؛ ولأنه = أيضاً هو السبب في الإدعام، والإدعام سبب في إعداد الخشبة فعامل سبب السبب معاملة السبب، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾، كذلك ما نحن فيه يكون الأصل، وجعلنا في الأرض رواسي لأهل أن تثبتها إذا مادت بهم، فجعل الميد هو السبب كما جعل الميل في المثل المذكور سبباً، وصار الكلام، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد فنثبتها، ثم حذف قوله فنثبتها لأمن الإلباس إيجازاً واختصاراً، وهذا التقرير أقرب إلى الواقع مما أوّل الزمخشري الآية عليه، فإنّ مقتضى تأويله أن لا تميد الأرض بأهلها؛ لأنّ الله كره ذلك، ومكروه الله تعالى محال أن يقع كما أنّ مراده واجب أن يقع، والمشاهد خلاف ذلك فكم من زلزلة مادت لها الأرض، وكادت تقلب عاليها سافلها وأما على تقريرنا، فالمراد أنّ الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مادت وهذا لا يأبى وقوع الميد، كما أنّ قوله أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى لا يأبى وقوع الضلال والنسيان من =

كما تزاد لذلك في نحو قوله: ﴿لئلا يعلم﴾ وهذا مذهب الكوفيين.

الفج: الطريق الواسع.

فإن قُلْتَ: في الفجاج معنى الوصف فما لها قدمت على السبل، ولم تؤخر كما في قوله تعالى: ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجًا﴾[1] **قُلْتُ:** لم تقدّم وهي صفة ولكن جعلت حالاً كقوله:

لعزة موحشا طلل قديم

فإن قُلْتَ: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ **قُلْتُ:** أحدهما: الإعلام بأنه جعل فيها طرقًا واسعة. والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة محفوظًا حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة.

وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿عن آياتها﴾ أي: عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومسايرها وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة، والقدرة الباهرة، وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ودبرها ونصبها هذه النصبة، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه، وقرئ: عن آيتها على التوحيد اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أي: هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية، كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها وحياة الأرض والحيوان بأمطارها. وهم عن كونها آية بينة على الخالق ﴿معرضون﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿كل﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه أي: كلهم ﴿في فلكٍ يسبحون﴾ والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما: جنس الطوالع كل يوم وليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها، وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.

فإن قُلْتَ: الجملة ما محلها؟ **قُلْتُ:** فمحلها النصب على الحال من الشمس والقمر.

فإن قُلْتَ: كيف استبد بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما؟ **قُلْتُ:** كما نقول: رأيت زيدًا وهندًا متبرجةً ونحو ذلك، إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل؛ ومنه قوله تعالى في هذه السورة ﴿ووهبنا له إسحٰق ويعقوب نافلة﴾[2] أو لا محل لها لاستئنافها.

فإن قُلْتَ: لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل: جميعهم يسبحون في فلك؟ **قُلْتُ:** هذا كقولهم: كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفًا؛ ي: كل واحد منهم أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً؛ لأنّ الغرض الدلالة على الجنس.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾.

كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا؛ أي: قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشراً، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت، فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟ وفي معناه قول القائل:

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾.

أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر. وإنما سمي ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه في صورة الاختبار و ﴿فتنة﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظة الذكر يكون بخير، وبخلافه فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل: سمعت فلاناً ينكرك. فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدوّاً فذم[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾[4].

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ۖ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾.

وقوله: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ والمعنى: أنهم

= إحداهما، لكنه ميد يستعقبه التثبيت، وكذلك الواقع من الزلازل إنما هو كاللمحة.

(1) سورة نوح، الآية: 20.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 72.

(3) قال أحمد: وكذلك القول، ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿أتقولون للحق لما جاءكم﴾ معناه: أتعيبون الحق لما جاءكم، ثم ابتدأ، فقال: أسحر هذا؟ وإنما لم يجعله معمولاً للقول ومحكياً به؛ لأنهم قفوا القول بأنه سحر، فقالوا: إنّ هذا لسحر مبين، ولم يشككوا أنفسهم، ولا استفهموا، وقد مضى فيه غير هذا، وإنما أطلقوا في= = قولهم أهذا الذي يذكر آلهتكم؟ ولم يقولوا: هذا الذي يذكر آلهتكم بكل سواء؛ لأنهم استفظعوا حكاية ما يقوله النبي من القدح في آلهتهم رمياً بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وحاشوها من نقل ذمها مفصلاً، فأوموا إليه بالإشارة المذكورة كما يتحاشى المؤمن من حكاية كلمة الكفر، فيومئ إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض، فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان، وأساؤا الأدب على الرحمن.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 60.

عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم وما يجب أن لا تنكر به من كونهم شفعاء وشهداء ويسوءهم أن ينكرها ذاكر بخلاف ذلك؛ وأما ذكر الله وما يجب أن ينكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدقون به أصلاً فهم أحق بأن يتخذوا هزؤًا منك فإنك محق وهم مبطلون. وقيل: معنى بذكر الرحمن قولهم: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة. وقولهم: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا! وقيل: بذكر الرحمن بما أنزل عليك من القرآن، والجملة في موضع الحال، أي: يتخذونك هزؤًا وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله.

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾.

كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم، فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها، ثم نهاهم وزجرهم؛ كأنه قال: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه أراد بالإنسان آدم عليه السلام، وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم. وروي: أنه لما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة، ولما دخل جوفه اشتهى الطعام. وقيل: خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس، فأسرع في خلقه قبل مغيبها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه النضر بن الحرث؛ والظاهر أن المراد الجنس. وقيل: العجل: الطين، بلغة حمير. وقال شاعرهم: والنخل ينبت بين الماء والعجل، والله أعلم بصحته.

فإن قُلْتَ: لم نهاهم عن الاستعجال؟ مع قوله: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾[1] وقوله: ﴿وكان الإنسان عجولا﴾[2] أليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟ **قُلْتُ:** هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقرئ ﴿خلق الإنسان﴾[3] جواب لو محذوف، وحين مفعول به ليعلم أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾[4] وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم.

لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾.

ويجوز أن يكون **﴿يعلم﴾** متروكًا بلا تعدية بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين، وحين منصوب بمضمر أي: حين **﴿لا يكفون عن وجوههم النار﴾** يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم، أي: لا يكفونها بل تفجؤهم فتغلبهم.

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾.

يقال للمغلوب في المحاجة: مبهوت، ومنه: **﴿فبهت الذي كفر﴾** أي: غلب إبراهيم عليه السلام الكافر. وقرأ الأعمش: يأتيهم فيبهتهم على التذكير، والضمير للوعد أو للحين.

فإن قُلْتَ: فإلام يرجع الضمير المؤنث في هذه القراءة! **قُلْتُ:** إلى النار أو إلى الوعد؛ لأنه في معنى النار وهي التي وعدوها، أو على تأويل العدة أو الموعدة أو إلى الحين؛ لأنه في معنى الساعة، أو إلى البغتة. وقيل: في القراءة الأولى الضمير للساعة وقرأ الأعمش: بغتة بفتح الغين **﴿ولا هم ينظرون﴾** تذكير بإنظاره إياهم وإمهاله وتفسيح وقت التذكر عليهم؛ أي: لا يمهلون بعد طول الإمهال.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾.

سلى رسول الله ﷺ عن استهزائهم به، بأن له في الأنبياء عليهم السلام أسوة، وأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام ما فعلوا.

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿من الرحمن﴾ أي: من بأسه وعذابه **﴿بل هم﴾** معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالئ وصلحوا للسؤال عنه؛ والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكالىء، ثم بيَّن أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم.

أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾.

ثم أضرب عن ذلك بما في **﴿أم﴾** من معنى بل. وقال: **﴿أم لهم آلهة تمنعهم﴾** من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا. ثم استأنف فبين أنّ ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها، ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره وينصره. ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاءة

(1) سورة الأنبياء، الآية: 37.
(2) سورة الإسراء، الآية: 11.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 37.
(4) سورة يونس، الآية: 48.

إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا.

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾.

وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعًا لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم **﴿حتى طال عليهم﴾** الأمد وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون، ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم وذلك طمع فارغ وأمد كاذب **﴿أفلا يرون أنا﴾** ننقص أرض الكفر ودار الحرب ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام.

فإن قُلْتَ: أي فائدة في قوله: **﴿ناتي الأرض﴾**! **قُلْتُ:** الفائدة فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها.

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۖ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾.

قرئ **﴿ولا يسمع الصم﴾**: ولا تسمع الصم بالتاء والياء أي: لا تسمع أنت الصم ولا يسمع رسول الله ﷺ ولا يسمع الصم من أسمع.

فإن قُلْتَ: الصم لا يسمعون دعاء المبشر، كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قيل: **﴿إذا ما ينذرون﴾**؟ **قُلْتُ:** اللام في الضم إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس والأصل، ولا يسمعون إذ ما ينذرون، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا أنذروا أي: هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام من آيات الإنذار.

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿ولئن مستهم﴾ من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لأذعنوا ونلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا، وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات لأنّ النفح في معنى: القلة والنزارة، يقال: نفحته الدابة وهو رمح يسير، ونفحه بعطية رضخه ولبناء المرة.

وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾.

وصفت **﴿الموازين﴾** بالقسط وهو: العدل مبالغة كأنها في أنفسها قسط، أو على حذف المضاف أي: ذوات القسط واللام في **﴿ليوم القيامة﴾** مثلها في قولك: جئته لخمس ليال خلون من الشهر ومنه بيت النابغة:

ترسمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

وقيل: لأهل يوم القيامة أي: لأجلهم.

فإن قُلْتَ: ما المراد بوضع الموازين؟ **قُلْتُ:** فيه قولان: أحدهما: إرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة من غير أن يظلم عباده مثقال ذرّة، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات. والثاني: أنه يضع الموازين الحقيقية ويزن بها الأعمال عن الحسن. هو ميزان له كفتان ولسان. ويروى: أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال: يا إلهي من ذا الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟ فقال: يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة.

فإن قُلْتَ: كيف توزن الأعمال وإنما هي أعراض! **قُلْتُ:** فيه قولان: أحدهما: توزن صحائف الأعمال. والثاني: تجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة؛ وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة. وقرئ **﴿مثقالَ حبة﴾** على كان التامة كقوله تعالى: **﴿وإن كان ذو عسرة﴾**[1] وقرأ ابن عباس ومجاهد **﴿أتينا بها﴾**، وهي مفاعلة من الإتيان بمعنى: المجازاة والمكافأة؛ لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء. وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب. وفي حرف أبيّ جئنا بها وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم: ذهبت بعض أصابعه.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾.

أي: أتيناهما. **﴿الفرقان﴾** وهو التوراة **﴿و﴾** أتينا به **﴿ضياءً وذكرًا للمتقين﴾** والمعنى: أنه في نفسه ضياءً وذكرًا، أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياءً وذكرًا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الفرقان والفتح كقوله: **﴿يوم الفرقان﴾**.[2] وعن الضحاك: **﴿فلق البحر﴾** وعن محمد بن كعب: المخرج من الشبهات. وقرأ ابن عباس ضياءً بغير واو وهو حال عن الفرقان. والذكر: الموعظة، وذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم، أو الشرف.

ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾.

محل **﴿الذين﴾** جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه.

وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿وهذا ذكر مبارك﴾ هو القرآن وبركته كثرة منافعه وغزارة خيره.

❁ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾.

الرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح. قال الله تعالى: **﴿فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم﴾**[3] وقرئ رشده

(1) سورة البقرة، الآية: 280.
(2) سورة الأنفال، الآية: 41.
(3) سورة النساء، الآية: 6.

والرشد، والرشد كالعدم والعدم، ومعنى إضافته إليه: أنه رشد مثله، وأنه رشد له شأن ﴿من قبل﴾ أي: من قبل موسى وهرون عليهما السلام. ومعنى علمه به: أنه علم منه أحوالاً بديعةً وأسرارًا عجيبةً وصفات قد رضيها وأحمدها حتى أهلّه لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك: في خير من الناس أنا عالم بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿إذ﴾ إما أن يتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف، أي: اذكر من أوقات رشده هذا الوقت قوله: ﴿ما هذه التماثيل﴾؟ تجاهل لهم وتغاب ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها. لم ينو للعاكفين مفعولاً وأجراه مجرى ما لا يتعدى، كقولك: فاعلون العكوف لها، أو واقفون لها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: عليها عاكفون! كقوله تعالى: ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾[1] **قُلْتُ:** لو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي على ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء وجادون في نصرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد سبة أنّ عبدة الأصنام منهم.

قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾.

﴿أنتم﴾ من التأكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به؛ لأنّ العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع. ونحوه ﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾[2] أراد أن المقلدين والمقلدين جميعًا منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين إلى غير دليل، بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلال بقوا متعجبين من تضليله إياهم وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة لا على طريق الجد، فقالوا له: هذا الذي جئتنا به أهو جد وحق أم لعب وهزل؟!.

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾.

الضمير في ﴿فطرهن﴾ للسموات والأرض أو للتماثيل، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم، وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وتصحيحه بها كما تصح الدعوى بالشهادة كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات لأني لست مثلكم فأقول: ما لا أقدر على إثباته بالحجة كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم.

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾.

قرأ معاذ بن جبل: بالله. وقرئ ﴿تولوا﴾ بمعنى: تتولوا. ويقويها قوله: ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾[3].

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين الباء والتاء؟ **قُلْتُ:** إنّ الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه. لأن ذلك كان أمرًا مقنوطًا منه لصعوبته وتعذره، ولعمري أن مثله صعب متعذر في كل زمان خصوصًا في زمن نمروذ مع عتوّه واستكباره وقوّة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه.

ولكن إذا الله سنى عقد شيء تيسرا

روي: أن آزر خرج به في يوم عيد لهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها، ووضعوا بينها طعامًا خرجوا به معهم وقالوا: إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنمًا مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرها كلها بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه. عن قتادة قال: ذلك سرًا من قومه. وروي سمعه رجل واحد.

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿جذاذا﴾ قطاعًا عن الجذ وهو القطع، وقرئ بالكسر والفتح، وقرئ جذذًا جمع جذيذ وجذذًا جمع جذة، وإنما استبقى الكبير؛ لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم، فيبكتهم بما أجاب به من قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم﴾[4]، وعن الكلبي ﴿إليه﴾ إلى كبيرهم، ومعنى هذا: لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحًا والفأس على عاتقك؟ قال: هذا بناءً على ظنه بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها، أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاءً بهم واستجهالاً، وأن قياس حال من يسجد له ويؤهله للعبادة أن يرجع إليه في حل كل مشكل.

فإن قُلْتَ: فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعرافهم، فأي فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم صلوات الله عليه غرضًا؟ **قُلْتُ:** إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم.

قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.
(2) سورة البقرة، الآية: 35.
(3) سورة الصافات، الآية: 90.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 63.

obeikandi.com

أي: أنّ من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود في الظلمة، إمّا لجرأته على الآلهة الحقيقية عندهم بالتوقير والإعظام، وإمّا لأنهم رأوا إفراطًا في حطمها وتماديًا في الاستهانة بها.

قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾.

فإن قُلْتَ: ما حكم الفعلين بعد **﴿سمعنا فتى﴾**، وأي: فرق بينهما؟ **قُلْتُ:** هما صفتان لفتى، إلا أنّ الأوّل وهو **﴿يذكرهم﴾** لا بدّ منه لسمع، لأنك لا تقول: سمعت زيدًا وتسكت حتى تذكر شيئًا مما يسمع، وأمّا الثاني: فليس كذلك.

فإن قُلْتَ: ﴿إبراهيم﴾ ما هو؟ **قُلْتُ:** قيل: هو خبر مبتدأ محذوف أو منادى، والصحيح أنه فاعل **﴿يقال﴾** لأنّ المراد: الاسم لا المسمى.

قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾.

﴿على أعين الناس﴾ في محل الحال بمعنى معاينًا مشاهدًا، أي: بمرأى منهم ومنظر.

فإن قُلْتَ: فما معنى الاستعلاء في على؟ **قُلْتُ:** هو وارد على طريق المثل أي: يثبت إتيانه في الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه. **﴿لعلهم يشهدون﴾** عليه بما سمع منه وبما فعله، أو يحضرون عقوبتنا له.

روي: أنّ الخبر بلغ نمروذ وأشراف قومه فأمروا بإحضاره.

قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾.

هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني، والقول فيه: إنّ قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلا أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبُك وقد كتبت كتابًا بخط رشيق، وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا؟! وصاحبك أمّيّ لا يحسن الخطّ، ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبته أنت، كأنّ قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك، وإثباته للأمّيّ أو المخرمش؛ لأنّ إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به، وإثبات للقادر ولقائل أن يقول: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشدّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه؛ لأنه هو الذي تسبب لاستهانته بها وحطمه لها، والفعل كما يسند إلى مباشرة يسند إلى الحامل عليه، ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإنّ من حق من يعبد ويدعى إلهًا أن يقدر على هذا، وأشدّ منه. ويحكى: أنه قال: فعله كبيرهم هذا، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها.

وقرأ محمد بن السميفع: فعلّه كبيرهم. يعني: فلعله أي: فلعلّ الفاعل كبيرهم.

فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾.

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: **﴿أنتم الظالمون﴾** على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين.

ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾.

نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه، وانتكس: انقلب أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأنّ هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة مضارّة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه حين نفوا عنها القدرة على النطق، أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم خجلاً وانكسارًا وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أحاروا جوابًا إلا ما هو حجة عليهم وقرئ: نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما سمي فاعله، أي: نكسوا أنفسهم على رؤوسهم، قرأ به رضوان بن عبد المعبود.

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿أف﴾ صوت إذا صوّت به عُلِم أنّ صاحبه متضجر، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم، واللام لبيان المتأفف به أي: لكم ولآلهتكم هذا التأفف.

قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾.

أجمعوا رأيهم لما غلبوا بإهلاكه، وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح لم يكن أحد أبغض إليه من المحق، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة، والذي أشار بإحراقه نمروذ. وعن ابن عمر رضي الله عنهما رجل من أعراب العجم يريد الأكراد، وروي أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه، ثم بنوا بيتًا كالحظيرة بكوثا، وجمعوا شهرًا أصناف الخشب الصلاب حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول: إن عافاني الله لأجمعنّ حطبًا لإبراهيم عليه السلام ثم أشعلوا نارًا عظيمة كادت الطير تحترق في الجوّ من وهجها، ثم وضعوه في المنجنيق مقيدًا مغلولاً، فرموا به فيها فناداها جبريل عليه السلام **﴿يا نار كوني بردًا وسلامًا﴾**، ويحكى ما أحرقت منه إلا وثاقه وقال له جبريل

عليه السلام حين رمي به: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك؟ قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي؛ وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل. وأطل عليه نمروذ من الصرح فإذا هو في روضة ومعه جليس له من الملائكة فقال: إني مقرّب إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة؛ وكفّ عن إبراهيم وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك ابن ست عشرة سنة، واختاروا المعاقبة بالنار؛ لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه، ولذلك جاء: «لا يعذب بالنار إلا خالقها»[1] ومن ثم قالوا: ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرًا مؤزرًا فاختاروا له أهول المعاقبات، وهي الإحراق بالنار وإلا فرّطتم في نصرتها، ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها، ولم يألوا جهدًا في ذلك جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كمأمور أمر بشيء فامتثله، والمعنى: ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كأن ذاتها برد وسلام، والمراد ابرُدي فيسلم منك إبراهيم أو ابرُدِي بردًا غير ضارّ، وعن ابن عباس رضي الله عنه لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها.

فإن قُلْتَ: كيف بردت النار وهي نار؟ **قُلْتُ:** نزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحرّ والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق والاشتعال كما كانت، والله على كل شيء قدير ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرّها ويذيقه فيها عكس ذلك، كما يفعل بخزنة جهنم ويدل عليه قوله: ﴿على إبراهيم﴾ وأرادوا أن يكيدوه ويمكروا به فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين؛ غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمبكت وفزعوا إلى القوّة والجبروت فنصره وقوّاه.

وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾.

نجيا من العراق إلى الشام وبركاته الواصلة إلى العالمين إن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية وهي البركات الحقيقية وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغنيّ والفقير، وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له: إلى أين؟ فقال: إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم وقيل: «ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس»[2]. وروي: أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾.

النافلة: ولد الولد وقيل: سأل إسحق فأعطيه وأعطي يعقوب نافلة أي: زيادة وفضلاً من غير سؤال.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾.

﴿يهدون بأمرنا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها، وأوّل ذلك أن يهتدي بنفسه لأنّ الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل ﴿فعل الخيرات﴾ أصله أن تفعل الخيرات، ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات، وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿حكمًا﴾ حكمة وهو ما يجب فعله، أو فصلاً بين الخصوم وقيل: هو النبوة، والقرية: سدوم.

وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾.

أي: في أهل رحمتنا أو في الجنة ومنه الحديث: «هذه رحمتي أرحم بها من أشاء».

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿من قبل﴾ من قبل هؤلاء المنكورين.

هو نصر الذي مطاوعه انتصر، وسمعت هذليا يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه أي: اجعلهم منتصرين منه، والكرب: الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ۖ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾.

أي: واذكرهما و﴿إذ﴾ بدل منهما، والنفش: الانتشار بالليل. وجمع الضمير؛ لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما وقرئ: لحكمهما.

فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾.

والضمير في ﴿ففهمناها﴾ للحكومة أو الفتوى وقرئ فافهمناها، حكم داود بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكمنّ فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد ثم يترادّان، فقال: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك.

فإن قُلْتَ: أحكما بوحي أم باجتهاد؟ **قُلْتُ:** حكما جميعًا بالوحي إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان عليهما

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: لا يُعذب بعذاب الله (حديث رقم 3016)، ورواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في كراهية حرق العدو بالنار (حديث رقم 2673).

(2) لم يورد الزيلعي هذا.

السلام وقيل: اجتهدا جميعًا فجاء اجتهاد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب.

فإن قُلْتَ: ما وجه كل واحدة من الحكومتين؟ **قُلْتُ:** أمّا وجه حكومة داود عليه السلام فلأنّ الضرر لما وقع بالغنم سلمت بجنايتها إلى المجني عليه كما قال أبو حنيفة رضي الله عنه في العبد إذا جنى على النفس: يدفعه المولى بذلك، أو يفديه، وعند الشافعي رضي الله عنه يبيعه في ذلك أو يفديه. ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث ووجه حكومة سليمان عليه السلام: أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء مافات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبدًا، فابق من يده: أنه يضمن القيمة، فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر ترادا.

فإن قُلْتَ: فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها؟ **قُلْتُ:** أبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم لا يرون فيه ضمانًا بالليل، أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق، أو قائد والشافعي رضي الله عنه يوجب الضمان بالليل وفي قوله: ﴿ففهمناها سليمان﴾ دليل على أنّ الأصوب كان مع سليمان عليه السلام، وفي قوله: **﴿وكلاً آتينا حكمًا وعلمًا﴾** دليل على أنهما جميعًا كانا على الصواب **﴿يسبحن﴾** حال بمعنى: مسبحات أو استئناف كأن قائلاً قال كيف سخرهنّ فقال: يسبحن **﴿والطير﴾** إمّا معطوف على الجبال، أو مفعول معه.

فإن قُلْتَ: لم قدمت الجبال على الطير؟ **قُلْتُ:** لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق روي: أنه كان يمر بالجبال مسبحًا وهي تجاوبه، وقيل: كانت تسير معه حيث سار.

فإن قُلْتَ: كيف تنطق الجبال وتسبح؟ **قُلْتُ:** بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى، وجواب آخر وهو أن يسبح من رآها تسير بتسيير الله، فلما حملت على التسبيح وصفت به **﴿وكنا فاعلين﴾** أي: قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجبًا عندكم وقيل: وكنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

اللبوس: اللباس، قال: البس لكل حالة لبوسها [illegible] المراد: الدرع. قال قتادة: كانت صفائح فأوّل من [illegible] ـها داود فجمعت الخفة والتحصين، **﴿لتحصنكم﴾** [illegible] ـون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل، والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع والياء لداود أو للبوس.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

قرئ* الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء، والنصب على العطف على الجبال.

فإن قُلْتَ: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة، وبالرخاوة أخرى فما التوفيق بينهما؟ **قُلْتُ:** كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم[1]، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال: ﴿غدوها شهر ورواحها شهر﴾[2] فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة، وقيل: كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفًا لهبوبها على حكم إرادته، وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدائن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال: يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا، أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه.

۞ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: ناداه بأني مسني الضر، وقرئ*: إني بالكسر على إضمار القول، أو لتضمن النداء معناه والضر بالفتح الضرر في كل شيء، وبالضم الضرر في النفس من مرض، وهزال فرق بين البناءين، لافتراق المعنيين ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب، ويحكى: أنّ عجوزًا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت: يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتي على العصى، فقال لها: ألطفت في السؤال لا جرم لأردنها تثب وثب الفهود، وملأ بيتها حبًّا.

كان أيوب عليه السلام روميًّا من ولد إسحق بن يعقوب عليهم السلام وقد استنبأه الله، وبسط عليه الدنيا وكثر أهله

---

(1) قال أحمد: وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جان، وتارة بأنها ثعبان، والجان الرقيق من الحيات، والثعبان العظيم الجافي منها، ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين، فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجان، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ففي= = كل واحد من الريح والعصا على هذا التقرير معجزتان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) سورة سبأ، الآية: 12.

obeikandi.com

وماله كان له سبعة بنين وسبع بنات، وله أصناف البهائم وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل، فابتلاه الله بذهاب ولده انهدم عليه البيت فهلكوا، وبذهاب ماله وبالمرض في بدنه ثماني عشر سنة، وعن قتادة: ثلاث عشر سنة، وعن مقاتل: سبعًا وسبعة أشهر وسبع ساعات، وقالت له امرأته يومًا: لو دعوت الله فقال لها: كم كانت مدّة الرخاء فقالت: ثمانين سنة فقال: أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدّة بلائي مدّة رخائي، فلما كشف الله عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم، وروي: أنّ امرأته ولدت بعد ستة وعشرين ابنًا **﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾** أي: لرحمتنا العابدين، وأن نذكرهم بالإحسان لا ننساهم، أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾.

قيل: في ذي الكفل هو إلياس وقيل: زكريا وقيل: يوشع بن نون، وكانه سمي بذلك؛ لأنه نو الحظ من الله والمجدود على الحقيقة، وقيل: كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم وقيل: خمسة من الأنبياء ذوو اسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس وذو الكفل، عيسى والمسيح، يونس وذو النون، محمد وأحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾.

﴿النون﴾ الحوت فاضيف إليه برم بقومه لطول ما ذكرهم، فلم ينكروا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظنّ أنّ ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبًا لله، وأنفة لدينه، وبغضًا للكفر، وأهله، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت.

ومعنى مغاضبته لقومه: أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها، وقرأ أبو شرف مغضبًا.

قرئ: نقدر ونقدر مخففًا ومثقلاً، ويقدر بالياء بالتخفيف، ويقدر ويقدر على البناء للمفعول مخففًا ومثلاً، وفسرت بالتضييق عليه، وبتقدير الله عليه عقوبة، وعن ابن عباس: أنه دخل على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصًا إلا بك قال: وما هي يا معاوية فقرأ هذه الآية، وقال: **﴿أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه﴾** قال: هذا من القَدَر لا من القُدْرَة. والمخفف يصح أن يفسر بالقدرة على معنى: أن لن نعمل فيها قدرتنا وأن يكون من باب التمثيل بمعنى، فكانت حاله ممثلة بحال من ظنّ أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر الله، ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان، ثم يردعه ويرده بالبرهان، كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان، وما يوسوس إليه في كل وقت، ومنه قوله تعالى: **﴿وتظنون بالله الظنونا﴾**[1] والخطاب للمؤمنين **﴿في الظلمات﴾** أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله: **﴿ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات﴾**[2] وقوله: **﴿يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾**[3] وقيل: ظلمات بطن الحوت وقيل: ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل: ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمة البحر. **﴿أن﴾** أي: بأنه **﴿لا إله إلا أنت﴾** أن بمعنى: أي، عن النبي ﷺ: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»[4]، وعن الحسن: ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾.

﴿ننجي﴾ وننجي ونجي والنون لا تدغم في الجيم، ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال: نجي النجاء المؤمنين فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره، ونصب المؤمنين بالنجاء فمتعسف بارد التعسف.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾.

سأل ربه أن يرزقه ولدًا يرثه ولا يدعه وحيدًا بلا وارث، ثم ردّ أمره إلى الله مستسلمًا فقال: **﴿وأنت خير الوارثين﴾** أي: إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾.

إصلاح زوجه: أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها وقيل: تحسين خلقها وكانت سيئة الخلق. الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام، يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون، وقرئ **﴿رغبًا ورهبًا﴾** بالإسكان وهو كقوله تعالى: **﴿يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾** **﴿خاشعين﴾**، قال الحسن: ذللا لأمر الله، وعن مجاهد: الخشوع الخوف الدائم في القلب، وقيل: متواضعين، وسئل الأعمش، فقال:

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 10.

(2) سورة البقرة، الآية: 17.

(3) سورة البقرة، الآية: 257.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك 1/505 و2/382، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في محبة الله عز وجل، فصل في آدامة ذكر الله عز وجل (حديث رقم 620).

أما إني سألت إبراهيم، فقال: ألا تدري؟ قلت: أفدني، قال: بينه وبين الله إذا أرخى ستره وأغلق بابه، فليرِ الله منه خيرًا لعلك ترى أنه إن يأكل خشنًا ويلبس خشنًا ويطأطئ رأسه.

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾.

﴿أحصنت فرجها﴾ إحصانًا كليًا من الحلال والحرام جميعًا كما قالت: **﴿ولم يمسسني بشر ولم أك بغيًا﴾**.

فإن قُلْتَ: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه، قال الله تعالى: **﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾**[1] أي: أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله: **﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾** ظاهر الإشكال؛ لأنه يدل على إحياء مريم! **قُلْتُ:** معناه: نفخنا الروح في عيسى فيها، أي: أحييناه في جوفها[2] ونحو ذلك أن يقول: الزمار نفخت في بيت فلان أي: نفخت في المزمار في بيته، ويجوز أن يراد: وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا، وهو جبريل عليه السلام؛ لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: آيتين كما قال: **﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾**! **قُلْتُ:** لأنّ حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل.

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾.

الأمة: الملة، وهذه إشارة إلى ملة الإسلام أي: أنّ ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة **﴿وأنا﴾** إلهكم إله واحد، **﴿فاعبدون﴾** ونصب الحسن أمّتكم على البدل من هذه ورفع أمّة خبرًا، وعنه رفعهما جميعًا خبرين لهذه، أو نوى للثاني مبتدأ والخطاب للناس كافة.

وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾.

والأصل وتقطعتم إلا أنّ الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقًا وأحزابًا شتى، ثم توعدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو محاسبهم ومجازيهم.

فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾.

الكفران: مثل في حرمان الثواب كما أنّ الشكر مثل في إعطائه إذا قيل: الله شكور، وقد نفى نفي الجنس ليكون أبلغ من أن يقول: فلا نكفر سعيه **﴿وإنا له كاتبون﴾** أي: نحن كاتبوا ذلك السعي ومثبتوه في صحيفة عمله، وما نحن مثبتوه فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه.

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾.

استعير الحرام للممتنع وجوده ومنه قوله عز وجلّ: **﴿إنّ الله حرّمهما على الكافرين﴾**[3] أي: منعهما منهم وأبى أن يكونا لهم، وقرئ حرّم وحرّم بالفتح والكسر وحرّم وحرّم ومعنى **﴿أهلكناها﴾**: عزمنا على إهلاكها أو قدّرنا إهلاكها، ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة، ومجاز الآية: أنّ قومًا عزم الله على إهلاكهم غير متصوّر أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة، فحينئذ يرجعون ويقولون: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا، بل كنا ظالمين يعني: أنهم مطبوع على قلوبهم، فلا يزالون على كفرهم، ويموتون عليه حتى يروا العذاب، وقرئ إنهم بالكسر وحق هذا أن يتمّ الكلام قبله، فلا بدّ من تقدير محذوف، كأنه قيل: وحرام على قرية أهلكناها ذاك وهو المذكور في الآية المتقدّمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور، ثم علل فقيل: إنهم لا يرجعون عن الكفر، فكيف لا يمتنع ذلك؟ والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا أي: لأنهم لا يرجعون، ولا صلة على الوجه الأوّل.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾.

فإن قُلْتَ: بم تعلقت **﴿حتى﴾** واقعة غاية له وأية الثلاث هي! **قُلْتُ:** هي متعلقة بحرام وهي غالة لأنّ امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة، وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام، والكلام المحكيّ الجملة من الشرط، والجزاء أعني: إذا، وما في خبرها حذف المضاف إلى **﴿يأجوج ومأجوج﴾**، وهو سدّهما كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها وقيل: فتحت كما قيل: أهلكناها وقرئ آجوج وهما قبيلتان من جنس الإنس يقال: الناس عشرة

---

(1) سورة الحجر، الآية: 29.

(2) **قال أحمد:** وقد اختار الزمخشري في قوله عزّ وجل: ﴿إذ أوحينا إلى أمّك أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل﴾ أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى موسى، أما الأوّل فلا إشكال فيه، وأما التابوت إذا قذف في اليم وموسى فيه، فقد قذف موسى في اليم، وكذلك الثالث واختار غيره عود الضميرين الأخيرين إلى التابوت؛ لأنه فهم من قوله: ﴿فاقذفيه في اليم﴾ أنّ= = المراد: التابوت، وأما موسى فلم يقذف في اليم، الزمخشري نزل قذف التابوت في اليم، وموسى فيه منزلة قذفه في اليم، وفي هذه الآية مصداق لما اختاره، فإنّ الله تعالى نزل نفخ الروح في عيسى لكونه في جوف مريم منزلة نفخ الروح في مريم، فعبر بما يفهم ظاهر هذا.

(3) سورة الأعراف، الآية: 50.

أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج ﴿وهم﴾ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر، وقيل: هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السدّ. الحدب: النشز من الأرض، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: من كل جدث وهو القبر الثاء حجازية، والفاء تميمية، وقرئ ﴿ينسلون﴾ بضم السين، ونسل وعسل أسرع.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾.

﴿ما تعبدون من دون الله﴾ يحتمل الأصنام، وإبليس وأعوانه، لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم. ويصدّقه ما روي: أنّ رسول الله ﷺ دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحرث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ الآية فأقبل عبد الله بن الزبعري فرآهم يتهامسون، فقال: فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه، فقال ابن الزبعري: أأنت قلت ذلك؟ قال: نعم، قال: قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرًا، والنصارى عبدوا المسيح، وبنو مليح عبدوا الملائكة، فقال ﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك»، فأنزل الله تعالى: ﴿إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ الآية[1] يعني: عزيرًا والمسيح والملائكة عليهم السلام.

فإن قُلْتَ: لم قرنوا بآلهتهم! **قُلْتُ**: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غمّ وحسرة، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب، ولأنهم قدّروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ويستنفعون بشفاعتهم، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

فإن قُلْتَ: إذا عنيت بما تعبدون الأصنام فما معنى: ﴿لهم فيها زفير﴾؟ **قُلْتُ**: إذا كانوا هم وأصنامهم في قرن واحد جاز أن يقال لهم: زفير، وإن لم يكن الزافرين إلا هم دون الأصنام للتغليب ولعدم الإلباس.

والحصب: المحصوب به أي: يحصب بهم في النار والحصب: الرمي، وقرئ بسكون الصاد وصفًا بالمصدر، وقرئ حطب وحضب بالضاد متحركًا وساكنًا.

وعن ابن مسعود يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون، ويجوز أن يصمهم الله كما يعميهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾.

﴿الحسنى﴾ الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن إمّا السعادة، وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾.

يروى: أنّ عليًّا رضي الله عنه قرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف، ثم أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه وهو يقول: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾، والحسيس: الصوت يحس، والشهوة طلب النفس اللذة.

لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾.

وقرئ ﴿لا يحزنهم﴾ من أحزن و﴿الفزع الأكبر﴾ قيل: النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصور ففزع من في السمٰوات ومن في الأرض﴾[2] وعن الحسن الانصراف إلى النار، وعن الضحاك حين يطبق على النار، وقيل: حين يذبح الموت على صورة كبش أملح أي: تستقبلهم ﴿الملائكة﴾ مهنئين على أبواب الجنة ويقولون: هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم.

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾.

قد حلّ العامل في ﴿يوم نطوي﴾، لا يحزنهم أو الفزع أو تتلقاهم وقرئ تطوى السماء على البناء المفعول، ﴿والسجلّ﴾ توزن العتلّ والسجلّ بلفظ الدلو وروي فيه الكسر وهو الصحيفة، أي: كما يطوى الطومار للكتابة أي: ليكتب فيه أو لما يكتب فيه؛ لأنّ الكتاب أصله المصدر كالبناء، ثم يوقع على المكتوب ومن جمع فمعناه للمكتوبات أي: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وقيل: السجل ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه، وقيل: كاتب كان لرسول الله ﷺ والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها ﴿أوّل خلق﴾ مفعول، نعيد الذي يفسره ﴿نعيده﴾ والكاف مكفوفة بما والمعنى: نعيد أوّل الخلق كما بدأناه تشبيهًا للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء.

فإن قُلْتَ: وما أوّل الخلق حتى يعيده كما بدأه! **قُلْتُ**: أوّله إيجاده عن العدم فكما أوجده أولاً عن عدم يعيده ثانيًا عن عدم.

فإن قُلْتَ: ما بال خلق منكرًا! **قُلْتُ**: هو كقولك: هو أوّل رجل جاءني تريد أوّل الرجال، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً، فكذلك معنى أوّل خلق: أوّل الخلق بمعنى: أوّل الخلائق؛ لأنّ الخلق مصدر لا يجمع، ووجه آخر وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده، وما موصولة أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده وأوّل خلق

(1) الواحدي في أسباب النزول ص 173.

(2) سورة النمل، الآية: 87.

ظرف لبدأناه أي: أوّل ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى ﴿وعدًا﴾ مصدر مؤكد لأنّ قوله: ﴿نعيده﴾ عدة للإعادة ﴿إنا كنا فاعلين﴾ أي: قادرين على أن نفعل ذلك عن الشعبي رحمة الله عليه.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾.

زبور داود عليه السلام، والذكر: التوراة وقيل: اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب والذكر أم الكتاب يعني: اللوح أي: يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار كقوله تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾[1] قال موسى لقومه: استعينوا بالله، واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي أرض الجنة وقيل: الأرض المقدّسة ترثها أمّة محمد ﷺ الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار، والوعد والوعيد والمواعظ.

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾.

البالغة والبلاغ الكفاية، وما تبلغ به البغية أرسل ﷺ.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾.

﴿رحمة للعالمين﴾ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها، ومثاله أن يفجر الله عينًا غديقة فيسقي ناس زروعهم، ومواشيهم بمائها فيفلحوا ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا، فالعين المفجرة في نفسها نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها وقيل: كونه رحمة للفجار من حيث إنّ عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾.

إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لأنّ ﴿إنما يوحى إلي﴾ مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد و﴿انما إلهكم إله واحد﴾ بمنزلة أنما زيد قائم، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أنّ الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية، وفي قوله: ﴿فهل انتم مسلمون﴾ أنّ الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله، وأن تخلعوا الأنداد وفيه أنّ صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع، ويجوز أن يكون المعنى: أنّ الذي يوحى إليّ فتكون ما موصولة.

فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾.

آذن منقول من أذن إذا علم، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار ومنه قوله تعالى: ﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾[2] وقول ابن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء

والمعنى: أني بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله، وتنزيهه عن الأنداد والشركاء كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة فنبذ إليهم العهد، وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعًا بذلك ﴿على سواء﴾ أي: مستوين في الإعلام به لم يطوه عن أحد منهم، وكاشف كلهم وقشر العصا عن لحائه و﴿ما توعدون﴾ه من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة، ولا بدّ من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك لأنّ الله لم يعلمني علمه، ولم يطلعني عليه والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام، و﴿ما تكتمون﴾ه في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين، وهو يجازيكم عليه.

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾.

وما أدري لعلّ تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون، أو تمتيع لكم ﴿إلى حين﴾ ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة.

قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾.

قرئ ﴿قل﴾ وقال: على حكاية قول: رسول الله ﷺ و﴿رب احكم﴾ على الاكتفاء بالكسرة ورب احكم على الضم، وربي أحكم على أفعل التفضيل، وربي أحكم من الأحكام أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر، ومعنى ﴿بالحق﴾: لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم كما قال: «اشدد وطأتك على مضر»[3]، قرئ ﴿تصفون﴾ بالتاء والياء كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين وخذلهم، عن رسول الله وآله ﷺ: «من قرأ: اقترب للناس حسابهم حاسبه الله حسابًا يسيرًا وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن»[4].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 137.

(2) سورة البقرة، الآية: 279.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (حديث رقم 804)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع = الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة حديث رقم (294. 675).

(4) رواه الثعلبي في تفسيره، ورواه الزيلعي 2/372.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحج مكية

غير ست آيات وهي هذان خصمان إلى قوله: ﴿إلى صراط الحميد﴾[1] وهي ثمان وسبعون آية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾.

الزلزلة شدّة التحريك والإزعاج، وأن يضاعف زليل الأشياء عن مقارها ومراكزها، ولا تخلو ﴿الساعة﴾ من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كانها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي، فتكون الزلزلة مصدرًا مضافًا إلى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف، وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى: ﴿بل مكر الليل﴾ والنهار وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾[2] واختلف في وقتها، فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي عند طلوع الشمس من مغربها، أمر بني آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى الذي لا يؤمنهم من تلك الافزاع إلا أن يتردوا به، وروي أنّ هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقراهما رسول الله ﷺ فلم ير أكثر باكيًا من تلك الليلة. فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرًا وكانوا من بين حزين وباك ومفكر[3].

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾.

﴿يوم ترونها﴾ منصوب بـ ﴿تذهل﴾ والضمير للزلزلة. وقرئ: ﴿تذهل كل مرضعة﴾ على البناء للمفعول وتذهل كل مرضعة أي: تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿مرضعة﴾ دون مرضع؟ **قُلْتُ:** المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به[4] فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿عما أرضعت﴾ عن إرضاعها، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، قرئ ﴿وترى﴾ بالضم من أريتك قائمًا، أو رؤيتك قائمًا و﴿الناس﴾ منصوب ومرفوع والنصب ظاهر، ومن رفع جعل الناس اسم ترى وأنثه على تاويل الجماعة، وقرئ سكرى وبسكرى وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان وسكارى وبكسارى، نحو كسالى وعجالى وعن الأعمش سكرى وبسكرى بالضم، وهو غريب والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وطير تمييزهم وردّهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله. وتمييزه وقيل: وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى[5] من الشراب.

فإن قُلْتَ: لم قيل أوّلاً ترون، ثم قيل: ترى على الإفراد؟ **قُلْتُ:** لأنّ الرؤية أوّلاً علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعًا رائين لها وهي معلقة أخيرًا بكون الناس على حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾.

قيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلي وصار ترابًا، وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم ولا يعضّ فيه بضرس قاطع وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء غير فارق بين الحق

---

(1) سورة الحج، الآية: 24.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 1.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج، (الحديث: 3169)، وأخرجه الحاكم في المستدرك، 4/567.

(4) قال أحمد: والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها، لكن مقتضاه أنه موصوف بها وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل، وخروج الصفة عليه، وكذلك هو في الآية لقوله: ﴿عما أرضعت﴾ فأخرج الصفة على الفعل وألحقه التاء.

(5) قال أحمد: والعلماء يقولون: إن من أدلة المجاز صدق نقيضه كقوله: زيد حمار إذاً وصفته بالبلادة، ثم يصدق أن تقول وما هو = بحمار فتنفي عنه الحقيقة، فكذلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازي نفي الحقيقي أبلغ نفي مؤكد بالباء، والسر في تأكيده التنبيه على أنّ هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله، والاستدراك بقوله: ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ راجع إلى قوله: ﴿وما هم بسكارى﴾ وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازي، كأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر، وهو السكر المعهود فما هذا السكر الغريب؟ وما سببه؟ فقال: سببه شدّة عذاب الله تعالى. ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه قال: هو الوقت الذي يقول كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه: نفسي نفسي.